المحاضرة الرابعة

السورة القرآنية: بناؤها العام وهيكلها ووحدتها (الافتتاحية ، المقاصد، الخاتمة)

تعريف السورة

أ- **لغة:** السورة في اللغة تطلق على ما ذكره صاحب القاموس بقوله: "والسورة المنزلة، ومن القرآن معروفة، لأنها منزلة بعد منزلة: مقطوعة عن الأخرى، والشرف، وما طال من البناء وحسن، والعلامة، وعرق من عروق الحائط"[1].

ب- اصطلاحا: يمكن تعريفها "بأنها طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع. قالوا وهي مأخوذة من سور المدينة، وذلك إما لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة، وآية بجانب آية، كالسور توضع كل لبنة فيه بجانب لبنة، ويقام كل صف منه على صف"[2].

وتجمع على سوَر، كغرفة وغُرف، فمعناها: المنزل أو المكان المرتفع، ومنه سور المدينة. أو المنزلة الرفيعة، ومنه قول النابغة الذبياني:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملْك دونها يتذبذب

أي: منزلة لا يبلغها أو يرتقي إليها سائر الملوك.

وقد قيل في القطعة من القرآن المشتملة على آي ذوات فاتحة وخاتمة- وأقلها ثلاث آيات- سورة لأنها تحيط بالآيات التي تضمها إحاطة السُّور، أو لارتفاعها وشرفها. وقد قيل: إنها سميت بذلك لتمامها وكمالها، من قول العرب للناقة التامة: سورة.

- **ترتيب السور:** لقد اختلف العلماء في ترتيب السور على ثلاثة أقوال:

الأول: أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن لم يكن بتوقيف من النبي إنما كان باجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم.

الثاني: أن ترتيب السور كلها توقيفي بتعليم الرسول صلى الله عليه وسلم كما أخبر به جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل كترتيب الآيات، وأنه لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر منه (ص).

---

[1] - الزرقاني (عبد العظيم): مناهل العرفان ج1و 2، ص207.

[2] - المصدر نفسه، ص208.

الثالث: أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضها الآخر كان باجتهاد من الصحابة.

والقول الثاني هو الراجح لأن هذا الترتيب هو الذي رتبه عثمان رضي الله عنه ووافقه عليه الصحابة رضي الله عنهم، وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف، لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالِفة بمخالفتهم[1].

قال ابن الحصار: ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي،كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:ضعوا آية كذا في موضع كذا وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله (ص) ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف[2].

ثانيا: بناؤها العام

إن بناء أو هيكل السورة القرآنية الكريمة يقوم على ما يصطلح عليه بعبارة : (الوحدة الفنية) : ويقصد بها أن هناك (خطوطاً) متفرقة (تجتمع) في نهاية المطاف عند (نقطة) واحدة أو (محور) واحد تتفرع أو تتلاقى عنده الخطوط، وهي (وحدة النص أو الوحدة الفنية) : و تنقسم إلى قسمين[3]:

1 – وحدة الدلالة: أي الأفكار التي تتضمنها السورة الكريمة.

2 – وحدة العناصر: أي العناصر اللفظية الصورية والإيقاعية... إلخ.

أما الوحدة الدلالية فتعني أن السورة الكريمة تتضمن مجموعة من الأفكار المختلفة التي تصب في النهاية في نهر واحد مثل فكرة (زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) والموقف منها.

وأما وحدة العناصر فتعني أن العناصر التي يتكون النص الأدبي منها (كالصور والقصص والإيقاع... الخ) توظف جميعاً من أجل إلقاء إنارة على الفكرة التي يتضمنها النص، كما لاحظنا ذلك بالنسبة إلى قصص أصحاب الكهف وصاحب الجنتين وذي القرنين، حيث وظف العنصر القصصي لإنارة فكرة (زِينَةَ الْحَيَاةِ).

---

[1] – ينظر: عبد المجيد محمود مطلوب: مباحث في علوم القرآن والحديث، ص 124.

[2] – موسى إبراهيم: بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، ص59

[3]- ينظر: محمود البستاني: في عمارة السورة القرآنية

ويلاحظ، أن هناك دراسات قد تناولت هذين الأمرين من الوحدة الفنية للسور القرآنية: (وحدة الدلالة ووحدة العناصر) خلاصتها أن السور الكريمة تخضع للأنماط الآتية من البناء الفني من حيث الأشكال[1] :

1 – البناء الأفقي

وهو أن تبدأ السورة بتناول موضوع معين وتنتهي بطرح الموضوع ذاته، مثل سورة (المزمل) التي بدأت بالحديث عن قيام الليل وتحديده **(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا** (4) ثم قطعت رحلة في موضوعات مختلفة ترتبط بنمط خاص من العلاقات، ولكنها ختمت بنفس الموضوع ? إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ....(20)

2 – البناء العمودي أو الطولي

وهو أن تبدأ السورة بتناول موضوع معين، ثم تواصل معالجته متسلسلاً إلى نهايته. مثل سورة (نوح) التي بدأت بالحديث عن إنذاره لقومه **(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3).**

ثم قطعت رحلة في عرض الإنذار ومواجهته، حتى ختمت بحادثة الطوفان (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ..)

3– البناء المقطعي: وهو أن تتناول السورة جملة من الموضوعات، ثم تقف عند نهاية كل قسم منها أو عند بداية قسم جديد منها فتجعله محطة توقف لتعود إلى المحطة ذاتها بعد أن تقطع رحلة ما، وتكرر هذه الرحلات ويتكرر الوقوف عند نفس المحطة. ومثاله: سورة (المرسلات) حيث ينتهي كل واحد من موضوعاتها عند مقطع يقول {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} ...**(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16)..**

4 – البناء التمهيدي

[1]- ينظر: المرجع السابق

وهو أن يكون كل واحد من موضوعات السورة ممهداً للموضوع الذي يليه، مثل سورة المطففين التي بدأت الحديث عن التطفيف، وربطته بالجزاء الأخروي (أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5).، ثم تحدثت عن الجزاء الأخروي (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6) ثم ربطته بالسلوك الدنيوي ? إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31).

من حيث الموضوعات: السور القرآنية الكريمة تخضع لواحد من الأبنية الآتية لأفكارها وموضوعاتها المجسدة لتكلم الأفكار[1]:

1-**وحدة الفكرة ووحدة الموضوع:** أي أن السورة تتضمن فكرة واحدة، وتتضمن موضوعاً واحداً لتجسيد الفكرة، ومثالها:

سورة (الفيل) التي تتضمن فكرة هي: أن الله تعالى يقف بالمرصاد لكل من تسول له نفسه التعرض للكعبة، وتتضمن موضوعاً واحداً هو الحادثة العسكرية التي هزم فيها العدو.

2- وحدة الفكرة وتعدد الموضوعات: أي أن السورة تتضمن فكرة واحدة، ولكنها تتضمن موضوعات متنوعة لتجسيد الفكرة، ومثالها سورة (الكهف) حيث تتضمن فكرة {زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} والموقف منها إلاّ أن الموضوعات التي جسدت الفكرة المذكورة قد تنوعت في قصص أهل الكهف وصاحب الجنتين وذي القرنين ... الخ.

3 -تعدد الموضوعات وتعدد الفكر: أي أن السورة تتضمن أكثر من فكرة وأكثر من موضوع، ومثالها: سورة المطففين التي تتضمن جملة موضوعات وجملة أفكار مثل: التطفيف، السخرية من المؤمنين، الجزاء الأخروي. وكل واحد من هذه الموضوعات ينطوي على فكرة يعبر عنها الموضوع ذاته.

من حيث الأسباب

إن وحدة السورة من حيث أشكالها وموضوعاتها وأفكارها تخضع ل- «سببية» تربط بين كل جزء من أجزاء السورة، بمعنى أن كل جزء من السورة يعد سبباً للاحقة ومسبباً عن سابقه، وهكذا. وهذه السببية تلحظ على أنماط متنوعة، منها :

[1]- المرجع السابق

1 – الإجمال و التفصيل: أي أن السورة تطرح موضوعاً مجملاً ثم تفصل الحديث عن خلال السورة بأكملها، ومثالها سورة (الواقعة) التي أجملت الثلاثة في البداية **وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً** ﴿٧﴾ **فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ** ﴿٨﴾ **وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ** ﴿٩﴾ **وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ** ﴿١٠﴾ **أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ** ﴿١١﴾. ثم فصلت الكلام على الأصناف الثلاثة طوال السورة كما هو واضح.

2 – النمو: أي أن الموضوع المطروح في السورة يتطور ويتنامى من مرحلة إلى أخرى كما يتنامى الكائن الحي في مراحل عمره، ومثاله : سورة يوسف في تنامي موضوعاتها وشخصياتها وأحداثها... الخ، فرؤياه أحد عشر كوكباً، والشمس والقمر تنامت في نهاية السورة إلى خضوع القوى المذكورة له، وهكذ.

3– **التجانس:** أي أن الموضوعات والأفكار التي تتناولها السورة يتجانس بعضها مع الآخر في خطوطه العامة. ومثالها سورة (الماعون) حيث طرحت موضوع (المكذب بالدين) وموضع (الساهي في صلاته) . ومع أن أحدهما غير الآخر إلاّ أنهما يتجانسان في جملة ظواهر مثل: البعد الاقتصادي والبعد العاطفي ونحوهما. فالمكذب بالدين لا يحض على طعام المسكين، والساهي في الصلاة يمنع الماعون. وكلاهما سلوك اقتصادي سلبي، وهكذا.

من حيث المقاصد

المقاصد جمع مقصد، بفتح الميم، والمقصد مدر ميمي مشتق من الفعل قصد يقصد قصداً، ومقصَداً، ومقصِداً[1] ، فالقصد، والمقصد بمعنى واحد، ويأتي القصد على معانٍ منها:

استقامة الطريق: يقال قصد الطريق قصداً: أي استقام[2] ، ومنه قوله تعالى} :وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ} [النحل: من الآية9]، قال ابن جرير الطبري: "السبيل: هي الطريق، والقصد من الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه"[3]

[1] معجم مقاييس اللغة 95/5.

[2] لسان العرب 3642/5

[3] جامع البيان 147/17.

والقصد يعني: العدل، والتوسط بين الإفراط والتفريط، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: من الآية19]، قال ابن عاشور: "والقصد :الوسط العَدل بين طرفين، فالقصد في المشي هو أن يكون بين طرف التبختر وطرف الدبيب ويقال: قصد في مشيه. فمعنى {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ}: ارتكب القصد"[1]

القصد يعني: التوجه، والأمّ، فيقال: قصد البيت إذا توجه إليه، وأمّ إلى البيت أي: قصد إلى البيت.

اصطلاحاً

تعددت أقوال العلماء في تعريف المقاصد، ومنها:

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عبارات كثيرة في مراده بالمقاصد، ومنها" :الغايات المحمودة في مفعولاته ومأموراته – سبحانه – وهي ما تنتهي إليه مفعولاته، ومأموراته من العواقب الحميدة التي تدل على حكمته البالغة"[2]

وقال الطاهر بن عاشور: هي المعاني والحكم الملحوظة في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة"[3]

أقسام المقاصد في الشريعة الإسلامية:

1-المقصد العام: هو تحقيق مصالح الخلق جميعاً في الدنيا والآخرة، ويتحقق هذا من خلال جملة أحكام الشريعة الإسلامية.

2- المقاصد الخاصة: هي الأهداف التي تسعى الشريعة إلى تحقيقها في مجال خاص من مجالات الحياة كالنظام الاقتصادي أو الأسري أو السياسي.. إلخ.. وذلك عن طريق الأحكام التفصيلية التي شرعت لكل مجال على حدة.

مراتب المصالح البشرية: مصالح الناس من حيث الأهمية على ثلاث مراتب:

أ- **الضروريات:** وهي ما لا يستغني الناس عن وجودها بأي حال من الأحوال، ويأتي على رأسها الكليات الخمس كما سيأتي بيانه.

---

[1] التحرير والتنوير 130/11

[2] مجموع الفتاوى 19/3.

[3] مقاصد الشريعة، له ص51.

ب- الحاجيات: وهي ما يحتاج الناس إليه لتحقيق مصالح هامة في حياتهم، يؤدي غيابها إلى المشقة واختلال النظام العام للحياة، دون زواله من أصوله، كما يظهر في تفصيلات أحكام البيوع والزواج وسائر المعاملات.

ج- التحسينيات: وهي ما يتم بها اكتمال وتجميل أحوال الناس وتصرفاتهم، مثل الاعتناء بجمال الملبس وإعداد المأكل وجميع محاسن العادات في سلوك الناس.

الكليات الخمس

اتفق أهل الأديان السماوية وعقلاء بني آدم على أن أهم ما يصلح به حال البشر حفظهم لأمور كلية خمسة، هي ما يطلق عليه الكليات الخمس (الدين، النفس، العقل النسل، المال).

وقد جاءت شريعة الإسلام بأحكام وافية لحفظ هذه الضروريات الخمس سواء من حيث الوجود، إذ شرعت لها ما يحقق وجودها في المجتمع، أو من حيث البقاء والاستمرار بإنمائها وحمايتها من أسباب الفساد والزوال.

أولاً: حفظ الدين

قدر الإسلام ما للدين من أهمية في حياة الإنسان حيث يلبي النزعة الإنسانية إلى عبادة الله، ولما يمد به الإنسان من وجدان وضمير، ولما يقوى في نفسه من عناصر الخير والفضيلة، وما يضفي على حياته من سعادة و طمأنينة. نظرا لتلك الأسباب كلها كان الدين ضرورة حياة بالنسبة للإنسان، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: 30].

ثانيا: حفظ النفس

لأنها من ضروريات الحياة الإنسانية، وصون حق الحياة. و قد شرع الإسلام عدة وسائل للمحافظة على النفس منها: الزواج من أجل التكاثر لتعمير العالم، وتشكل بذرة الحياة الإنسانية في الجيل الخالف، وقد نوه الإسلام بالعلاقة المقدسة بين الزوجين واعتبرها آية من آيات الله ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: 21].

ثالثا: حفظ العقل:

للعقل في الإسلام أهمية كبرى فهو مناط المسؤولية، وبه كرم الإنسان و فضل على سائر المخلوقات، وتهيأ للقيام بالخلافة في الأرض وحمل الأمانة من عند الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا

الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ [الأحزاب: 72] ولهذه الأهمية الخاصة حافظ الإسلام على العقل وسن من التشريعات ما يضمن سلامته و حيويته و من ذلك:

1- أنه حرم كل ما من شأنه أن يؤثر على العقل ويضر به أو يعطل طاقته كالخمر و الحشيش وغيرها قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: 90]. كما شرع العقوبة الرادعة على تناول المسكرات، وذلك لخطورتها وأثرها البالغ الضرر على الفرد و المجتمع.

رابعا: حفظ النسل: و يراد به حفظ النوع الإنساني على الأرض بواسطة التناسل لأن الإسلام يسعى إلى استمرار المسيرة الإنسانية على الأرض؛ حتى يأذن الله بفناء العالم ويرث الأرض ومن عليها.ومن أجل تحقيق هذا المقصد شرع الإسلام المبادئ والتشريعات التالية:

1- شريعة الزواج: فقد شرع الإسلام الزواج ورغب فيه واعتبره الطريق الفطري النظيف الذي يلتقي فيه الرجل بالمرأة من أجل تحقيق هدف سام هو حفظ النوع الإنساني، وابتغاء الذرية الصالحة.

2- العناية بتربية النشء وتعميق روابط الألفة: ألزام الأبوين برعاية أولادهما والأنفاق عليهم.

3-العناية بالأسرة وإقامتها على أسس سليمة: باعتبارها الحصن الذي يتربى جيل المستقبل فيه.

4- تحريم الاعتداء على الأعراض: و لذا حرم الله الزنا كما حرم القذف، وحدد لكل منها عقوبة رادعة قال تعالى:﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: 2].

خامسا: حفظ المال

شرع الإسلام من التشريعات والتوجيهات ما يشجع على اكتساب المال وتحصيله، ويكفل صيانته وحفظه و تنميته، وذلك على النحو التالي:

وسائل الحفاظ على المال إيجادا و تحصيلا:

1/ الحث على السعي لكسب الرزق، وتحصيل المعاش فقد حث الإسلام على كسب الأموال باعتبارها قوام الحياة الإنسانية، واعتبر السعي لكسب المال -إذا توفرت النية الصالحة وكان من الطرق المباحة- ضربا من ضروب العبادة، وطريقا للتقرب إلى الله قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ [الملك: 15.

2/ أنه رفع منزلة العمل وأعلى من أقدار العمال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده).